محو الأمية المعلوماتية(*)

د. مجدي محمد إبراهيم
مدير المخطوطات والتزويد
ومركز تكنولوچيا المعلومات
بمكتبة مبارك العامة

مقدمة :

مجتمع يعانى من «مشكلة الفكر» : مشكلة أن يفكر : أن يتعامل مع الأحداث الحياتية بصورة إيجابية، وأن يكون فاعلاً مفعولاً معه لا مفعولاً به ، بل وأحياناً غير موجود فى دائرة الفعل . فمثل هذا المجتمع طبيعى جداً أن يعانى من الجهل والفقر والمرض النفسى والعضوى ! وهذا المجتمع تطلق عليه الألقاب والأوصاف المختلفة ، غير أنه لا مفر من تعريف هذا المجتمع بلقب شامل ومشهور وصحيح – من عدة وجوه – وهو : «مجتمع أمى الفكر» مجتمع لا يستطيع أن يفكر ، ولا يريد أن يفكر ، بل لا يريد لغيره أن يفكر !

وأمية الفكر أخص من أمية مشهورة ومعروفة ، وهى عدم القدرة على القراءة والكتابة .

وهناك علاقة بين أمية الفكر وعدم القدرة على القراءة والكتابة ، فالشعوب التى لا تستطيع القراءة والكتابة فقدت مصادر معرفة ، وعطلت جزءاً من وسائل المعرفة لديها ، ومثل تلك الشعوب تعانى فى عصرنا الحالى جهلاً مركباً مكوناً من عدم القدرة على الكتابة وعدم القدرة على التعامل مع أدوات المعرفة الحديثة ، والتى بدورها أصبحت جزءاً لا يمكن الاستغناء عنه فى المسيرة المعرفية المعاصرة . فقد تكون هناك علاقة طردية بين عدم القدرة على القراءة والكتابة وبين عدم القدرة على التفكير بعامة، وعدم التعامل مع مصادر وأدوات المعرفة الحديثة ، ومع ذلك فقد نشاهد فرداً لا يستطيع القراءة والكتابة لكنه يستطيع أن يستخدم ملكات عديدة تؤدى به إلى نتائج عظيمة الأثر فى تاريخ البشرية ، فهذا إنسان مفكر ، وقد نشاهد «حاصلاً على الدكتوراة» تحمل رسالته ما يدل علي جهل بما يحمله ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ [سورة الجمعة:

* قدم فى مؤتمر المكتبات والمعلومات فى مجتمع المعرفة : الحاضر والمستقبل ، جامعة عين شمس ، كلية الآداب ، ٣١ مارس – ١ إبريل ٢٠٠٤م .

الآية ٥] . ونستطيع وضع لفظ الدكتوراة مكان التوراة والنتيجة واحدة – فى بعض الأحيان – فهناك علاقة بين الأميتين ، قد تكون عكسية – وهذا نادراً – وقد تكون طردية وهذا الغالب . نخلص من ذلك إلى أن محو الأمية المعلوماتية فى مجتمع أمى مشكلة تركيبية معقدة تتطلب التعامل مع العديد من المعوقات التاريخية والآنية ، والنفسية، بل والعضوية أيضاً .

وللتعامل مع هذه المشكلة ضمن فاعليات مؤتمر علمى فى فترة محددة ومحدودة يتطلب الأمر توقع ما سيقدمه الآخرون ، بحيث لا نكرر مجال البحث ، ولا نضيع فرصة إحداث الأثر الشامل لدى المستفيد المقصود التوجه إليه بنتائج هذا المؤتمر .

وقد وقع اختيارى على مشكلة مجتمع أعيش فيه : مصر ، ومجتمع سافرت إليه : السعودية والجزائر وموريتانيا ، وليبيا ، حيث عملت فى جامعات تلك الدول ، وكذلك سافرت فى مهام علمية إلى عدة دول عربية وغير عربية ، وتبين لى حجم مشكلة محو الأمية المعلوماتية فى أى مجتمع بعامة وأى مجتمع أمى بخاصة ، وأخص من ذلك إذا كان ذلك المجتمع يعانى الفقر ورفقته من مرض وعجز وجهل متنامى بفعل هذا الحشد القاهر .

وقد قصدت بعنوان البحث ما يلى :

محـــو : معرفتى بحجم مشكلة الأمية المعلوماتية ، فمعرفتى بها وتنبهى لخطورتها جزء أساسى من محاولة محو أمية فرد أو شعب فى أى مجال من مجالات المعرفة . وقصدت – أيضاً – بكلمة محو تنبيه المحيط الذى أعيش فيه وعشت فيه إلى خطورة تجاهل أدوات المعرفة المعاصرة ، فلقد أقسم الله بالكمبيوتر فى مجمل قسمه بالقلم ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [سورة القلم : الآية ١] . فالقسم لم يحدد نوع القلم ؛ واليوم نحن نسطر بالكمبيوتر فهو داخل فى القسم فالله سبحانه وتعالى يعلم ما كان وما سيكون والحاسب الآلى ضمن علم الله ، ولم يأت نص بتحريمه ، بل الأمر واضح بأهميته ، وما سينتج عنه .

وقصدت – كذلك – بمحو : إدراك الشعوب التى سبقت فى التعامل مع مصادر المعرفة الجديدة ووسائلها وأدواتها ، فإن السير فى سفينة واحدة مع أناس يجدفون ضد مسيرة المركب ليس فى صالح ركاب تلك السفينة جمعياً ، ولذلك لابد من الشفافية فى التعامل مع جميع ركاب السفينة فى جميع مجالات المعلومات .

وقصدت – أيضاً – بكلمة محو : محواً بالذات وبالمحيط، وهذا ما سنبينه فى معرض البحث.

الأمية : عدم القدرة على التعامل بوسائل المعرفة بكامل قدراتها ، وكذلك عدم القدرة على تقبل مصادر المعرفة ، والعجز عن إدراك لا نهائية المعرفة ، فقد ندرك حدود وسائل المعرفة لكننا – فى بعض الأحيان – نعتقد بأن حدود تلك الوسائل تعنى محدودية المعرفة ذاتها وهذه أمية معرفية منتشرة بين العديد من جميع طبقات المجتمعات مع اختلاف مستوى تحصيلها «الشهاداتى» !! مع بقاء عدم القدرة على القراءة والكتابة عاملاً أساسياً فى حصول ذلك الاعتقاد بوجه خاص .

المعلوماتية : المعلومة الصادرة من والمتعلقة بها والحاصلة من ظهور الحاسب الآلى .

مجتمع أمى : المجتمع المنطبق عليه تعريف الأمية المذكور فى تحديد مصطلحى للأمية .

وقصدت من البحث بعامة تبين الصعوبات التى تعانيها المكتبة المعاصرة فى التعامل مع مجتمع أمى بشمول ذلك المعنى .

وقد قسمت بحثى إلى ثلاثة أقسام ، وخاتمة كالتالى :

القسم الأول : مكونات المشكلة (أسبابها) .

القسم الثانى : منهج المعالجة .

القسم الثالث : الغاية والخاتمة والنتائج .

الهوامش : ومصادر ومراجع البحث .

القسم الأول

الأسس

مشكلة محو الجهل بشيء ، مشكلة معقدة لأنها لا تتعلق بذات جاهلة فحسب ، بل تتعلق بمجتمع أفرز هذه الذات ، وتلك الذات تاريخ شامل لكل مكونات مجتمعها ، وإذا كانت المجتمعات فى جبر لعصور المعرفية قد عاشت «فترة من الدهر طويلة بدون مكتبات ، بل بدون أي نوع من التسجيل على الوسائط المادية المعروفة ... وإذا كانت الإنسانية قد عاشت فى العصور البدائية جداً بدون التدوينات ، وبدون المكتبات فليس معنى ذلك أنها عاشت بدون المعلومات»[١] . فالإنسان معلومة ، الإنسان معرفة ، الإنسان كلمة ، ومعنى ، ويستطيع أن يعبر عن كل هذا بعدة وسائل قبل الكتابة والكتاب والمكتبة ، ومع الكتابة والكتاب والمكتبة ، ومع عصر المعلوماتية الحديث ، ولذلك لن تتوقف مسيرة ذلك الإنسان المعرفية على وسيلة محددة يحمل عليها معرفته ليحقق ماهية من ماهيات العلم ألا وهى التراكمية ، فالعلم تراكمى ، ولن تستطيع ذاكرة الإنسان أن تحفظ كل رصيد البشرية المعرفى، فقد عجز الإنسان أمام تعدد المنتج المعرفى الإنسانى ومعارف الكون المتعددة عن حفظ كل هذا فى ذاكرته الداخلية ، لكنه لم يقف «عاجزاً أمام هذا التحدى بالنسبة لرصيد المعلومات وحفظها ... فلجأ إلى الوسائط المادية فى بيئته كالحجارة والطين وأجزاء النبات وعظام الحيوانات وجلودها يسجل عليها بالصور والأشكال أول الأمر ثم بالحروف والكلمات – فيما بعد – ما يمثل الخبرات التى اكتسبها»[٢] . فهذا الإبداع فى تحميل المنتج المعرفى يوجهنا اليوم إلى إمكانية الرقى المعرفى برغم أهمية الفرد ، وهذا ما يوفره عصر المعلومات الحديث فيمكننا استخدام الصور والوسائل الإيضاحية فى استمرار مسيرة الإنسان المعرفية برغم عجز البعض عن القراءة والكتابة ، فهذا العجز لا يقف عقبة أمام تقدم الإنسان وحفظ تراثه المعرفى ، فقد استخدم الإنسان كل إمكانيات عقله وبيئته ليحقق تراكمية العلم ، ومن هنا ظهرت فكرة المكتبات «فهكذا بدأت الذاكرة الخارجية للإنسان ، أو هكذا بدأت ما نسميه الآن بالمكتبات ومراكز المعلومات»[٣] وقد تم ذلك عبر أحقاب معرفية «فقد طور الإنسان (وظيفة التحميل) فى عملية الإنتاج الفكرى عبر العصور ، ولا يزال التطور مستمراً ولن يزال كذلك فى المستقبل القريب والبعيد»[٤] . فالكتابة وسيلة من وسائل حفظ المعرفة ، والقراءة وسيلة استرجاع تلك المعرفة ، ولكن مع ذلك فإن العالم العربى يعانى أمية القراءة والكتابة ويعانى قلة ممارسة القراءة لدى القارئين بصورة خطيرة لدرجة توحى بأن مجتمعاتنا مجتمعات أمية سواء فيها القارئ وغير القارئ ، فنسبة ممارسة القراءة لدى المؤهلين لها نسبة متدنية ، فالكتابة والكتب والمكتبة أدوات معرفة محروم منها الأمى ، وكذلك حرم منها غير الأمى بعزوفه عن القراءة ، فما هو مدى الإقبال على القراءة فى بلادنا «فمن يقرأ الكتب

المنشورة ؟ وما نسبة القراء الذين يقتنونها أو يترددون على المكتبات لقراءتها ؟ من الصعب جداً الإجابة عن هذا السؤال بدقة علمية نظراً لعدم وجود إحصائيات قطرية»[٥] فنحن أمام مشكلة مركبة معقدة هى مشكلة الأهمية وآثارها فى تاريخ المجتمع، فحتى غير الأمى يعانى مناخ الأمية فيساير ذلك المناخ برغم من تخلصه من العجز عن القراءة والكتابة ، والمجتمع الذى يدعى أنه يواجه خطر الأمية لا توجد لديه البداية العلمية لمواجهة ذلك الخطر ، وهذه البداية على أقل تقدير هى معرفة حجم هذه المشكلة ؟ ومدى تأثيرها على المجتمع ككل ؟ فنحن نخرج من تقديرنا لحجم المشكلة حجم تأثيرها فى المناخ الثقافى العام للأقطار العربية، وحقيقة أن «الإقبال على القراءة يزداد باستمرار فى الأقطار العربية التى تتسع فيها حركة التعليم والكتاب موجود فيها بين فئات المثقفين وغير موجود فى الأوساط الشعبية كالعمال والفلاحين والحرفيين وغيرهم ، ولو ألقينا نظرة مقارنة تقريبية بين بعض دول العالم المتقدم فإن النتيجة ستلحق دون شك خسارة فادحة ؟ بل وخطيرة بالدول العربية»[٦] ، وهذا أمر خطير فى ضوء التقدم المعرفى المعاصر ، لأنه فى الحقيقة أن النسبة خطيرة تلحق القارئ بالأمى دون تعسف منا ، فنسبة القراء الذين يترددون على المكتبات فى الدول المتقدمة مثل كندا «تصل إلى ٤٠ ٪ من مجموع عدد السكان وتصل فى الدانمارك والاتحاد السوفيتى سابقاً إلى ٣١ ٪ ، وفى بريطانيا ٣٠ ٪ ، وفى أمريكا ٢٠ ٪ أما فى بلد عربى نام كتونس فتصل هذه النسبة إلى ٧١ ٪»[٧] . فهذه النسبة أقل من واحد فى المائة ، ولا يختلف الأمر كثيراً فى معظم البلاد العربية[*] التى تعيش وهم القضاء على الأمية بينما هى تزيد من نسبة الفراغ الثقافى ، بل تزيد الفجوة الثقافية بيننا وبين العالم المتقدم .

إن المكتبات فى العصر الحالى تعانى من فراغ حدث نتيجة تأخر المكتبات فى بعض المجتمعات فى التعامل مع أدوات المعرفة الحديثة ، وأصرت على بقاء الكتاب كصورة ثابتة لوجود المكتبة ، وقد صاحب ذلك خمود من بعض فئات المجتمع تجاه القراءة نتيجة الانشغال التام بكسب لقمة عيش عزيزة المنال ، كما أن التسرب من المراحل التعليمية المختلفة قد عاد بصورة لم تكن متوقعة ، وذلك للسبب التالى :

الفقر الذى عاد كصفة قاسمة لبعض المجتمعات التى تحولت إلى قسمين : فقراء وهم الأغلبية ، وأغنياء وهم القلة ، فقد انزوت الطبقة الوسطى – والتى هى فى الغالب الطبقة المثقفة العريضة – انزوت فى عزلة تئن من فقر اقتصادى

(*) نجحت بعض المكتبات العربية فى الإرتقاء بهذه المعدلات المتدنية نتيجة منظومة ناجحة فى استخدام كل وسائل المعلوماتية الحديثة وبأساليب مبدعة وراقية وبعيداً عن الروتين الحكومى ، ومن أهم أمثلة هذه المكتبات مكتبة مبارك العامة بالجيزة، فإدارة المكتبة تتمتع بفكر إدارى متميز أتاح للعاملين فى المكتبة مساحة من الحرية فأبدع كل موظف فى مجال تخصصه، فصارت المكتبة نموذجاً نادراً فى المنطقة العربية ، بينما الأمر فى المكتبات الحكومية يؤدى إلى ثبات هذه النسب المتدنية من عدد المترددين ، وهذا جزء من تعقد مشكلة الثقافة فى المنطقة العربية ، ومشكلة محو الأمية جزء من المشكلة الثقافية تعانى تاريخاً من الأخطاء .

ومن فقر فى أدوات المعرفة ، حيث لم تستطع التعامل مع أدوات المعرفة الحديثة مثل الحاسب الآلى فتأخر المجتمع فى اللحاق بركب معرفى ناهض وسريع الانتشار فظهرت أمية جديدة أضيفت إلى أمية قديمة متعلقة بعدم القدرة على القراءة والكتابة.

وقد أدركت الفئة الغنية والفقيرة والمتوسطة – التى ضمت إلى الفقيرة – عدم جدوى التعليم من الناحية الاقتصادية ، فالفرد ينفق عليه – فى المتوسط – خلال عشرين عاماً أكثر من مائة ألف جنيه ، ثم يظل ينتظر فرصة العمل أكثر من عشرين عاماً أخرى ، ثم – إذا عين فى وظيفة فإنه – يحصل على راتب مائة جنيه ينفقها فى المواصلات! هنا أصبح ترك التعليم المدرسى قناعة مشتركة بين فئات المجتمع ، ولم تعد خياراً حراً ، وهنا كان للمكتبات أن تقوم بدور المنقذ لمجتمع ينهار معرفياً ، وليست المكتبات بصورتها التقليدية ، بل بالمكتبات بصورتها الحديثة الشاملة التى تتعامل مع أدوات المعرفة الحديثة وتيسر وجودها والتعامل معها لجميع فئات المجتمع .

وقد ظهرت مشكلات فى التعامل مع أدوات المعرفة الحديثة – بجانب مشكلة الفقر – وهى مشكلات تتعلق بهجمة ضد تلك الأدوات من حيث حرمتها وأنها تسبب إنحرافاً أخلاقياً .

كما ظهرت مشكلة ضعف إجادة اللغات الأجنبية ، والتى هى بدورها أداة من أهم أدوات التعامل مع المعلوماتية المعاصرة .

وهذه المشكلات لا تمثل خطراً بقدر خطر الخصام المعرفى مع عصر نعيش فيه ولا نعيشه !

ففى المجتمعات العربية نشأت صراعات معرفية متباينة المنطلقات ومتعارضة فى الأهداف ، وتعلق ذلك بأمية سابقة متمثلة فى عدم القدرة على القراءة والكتابة ، وأمية لاحقة متمثلة فى عدم القدرة على التعامل مع أدوات المعرفة الحديثة ، وحاول أصحاب هذا النوع من العجز ترسيخ هذا العجز فى المجتمع العربى ، باعتبار أن الحياة كانت تسير من قبل بغير هذا النوع من المعرفة فلماذا لا نستمر على ما كنا عليه !! والحقيقة أن هذا ليس استمراراً بل موتاً ، فالمجتمع العربى فى عهود سابقة كان أمياً فى جزئية معرفية ولكنه كان قابلاً للمعرفة من وسائل أخرى كالسماع كى يستطيع الحياة ، وكى يستطيع أن يخرج من مجالات الحياة المختلفة كنوزاً معرفية تحقق ماهية تلك الحياة ، ولم يكن العجز عن القراءة والكتابة يعتبر شرفاً ؟ . بل كان يعتبر هذا العجز عيباً يحاول تلافى آثاره بتركيز حواسه فى مجالات معرفية أخرى حتى لا ينفصل عن مجتمعه وعن الحياة والمجتمعات التى من حوله ، كما كان النبى الأمى يأمر غيره بتعليم الناس القراءة والكتابة ويجازى على ذلك ، ويتلوا عليهم أناء الليل وأطراف النهار قول الله : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [سورة العلق: الآيات ١-٥] ، ولكن ظهر فى المجتمع العربى فصاماً نكداً هو الفصام النكد الحقيقى وهو الذى تمثل فى فصم وسائل المعرفة عن المصادر المناسبة لها والتى خلقت من أجل التعامل معها ، والتى لا تتحقق ماهيتها إلا بالتعامل معها ، وصاحب هذا الفصام وجود الذات التى تقدس غير المقدس ، فقد قدست الجهل باعتبار أن هذه الأدوات المعرفية

بدعة، وتابعوا القول : فجعلوها ضلالة ! وهذا دين مركب دين وضعى !! فالدين السماوى يأمر بإعمال كل الحواس المعرفية فى كل مصادر المعرفة التى تناسبها ، بينما الدين الوضعى : وهو تفسير الدين السماوى من قبل البشر يرفض كل ما يتعذر عليهم فهمه ، والتعامل معه ، والأديان الوضعية لا تستطيع التخلص من أميتها المعلوماتية حتى وإن حصلت على الدكتوراه فى علوم عديدة ، فعقول أصحاب الديانات الوضعية فى حالة موت وليست فى حالة سبات أو إسبات ، وقد عايشت هذه النوعيات فى عدة دول ، ولم أجد أخطر على الديانات السماوية من هؤلاء الذين يحاولون التأله بعلم فوق علم الله ، وهؤلاء يرهبون المجتمع بكهنوتية مريضة ، وقد رأيتهم فى جميع الديانات ، ولكن وجدت بعض دور العبادات قد أصبحت مركز معلومات يمارس فيه رجل الدين نوعاً من الانفتاح المعرفى لم تكن الكهونتية السابقة فى بعض دور العبادات تسمح به وهذا تغيير مهم لكن هذا الأمر لم أجده فى دور العبادات لدى البعض فقد عايشوا الفصام النكد على أنه قدر حتمى فقليل من شيوخ العالم الإسلامى يستطيعون استخدام وسائل المعرفة المعاصرة ، وقليل منهم من يجيد اللغات الأجنبية ، فهم فى خصام مع العالم لغة ومعرفة ومنهجاً ، وإن كانوا يهاجمون هذا العالم دائماً ، وكأن المفروض على هذا العالم ألا يتقدم وألا يتفوق على المسلمين لأنهم لا يريدون الاستفادة من منجزات عقل الإنسان المخلوق !

ولأن معظم العالم الإسلامى يعانى مرضاً خاصاً وهو «تنقيم كل نعمة ، فقد تأرجح الرأى بشأن الإنترنت [مثلاً] بين حديث النعم وحديث النقم»[(٨)] برغم من أن القلم الذى أقسم الله به يمكن أن يكتب به كل شر ، بل وكل كفر ، وكذلك كل ما هو مباح شرعاً يمكن أن يكون شراً وحراماً ، وبالتالى فإن الخصام المعرفى مع منجزات العصر لا مبرر له ، إلا العجز النفسى الذى يعانيه بعض العرب وبعض المسلمين ، بل إن بعض العاجزين عن فهم عطاء الله فى كل عصر اعتقدوا أن ظهور الحاسب الآلى معناه نهاية كل ما سبق مثل «المؤلف ... الورق ... المكتبة ... الأيديولوجيا ... الطبقة المتوسطة ... الذاكرة ... إن النهايات هنا إما بدافع فكر متطرف متسرع تشابهت عليه الظواهر المؤقتة وكأنها قاربت غاياتها أو استنفدت أغراضها ، وإما بدافع الحسرة على ما كنا نفقده أن نودعه خزائن النسيان»[(٩)] وليست النهاية كانت مرتبطة بظهور الحاسب الآلى وملحقاته ، بل كانت مختزنة داخل نفس انهزامية تتيح للدول المتقدمة أن تدعى تميزاً أنثروبولجيا وعقلياً ، وهذا الادعاء يمثل عقبة كبرى تحول بين الشعوب المتخلفة وبين حقها فى أرث البشرية المعرفى ، الذى يدعى الغرب حقه فى احتوائه ، بل وتسخيره لأهداف احتكارية منها ما هو خير فى ذاته ومنها ما هو شر مطلق ينزع إلى محو الآخر ، أو خنقه فى دائرة «حضور بلا وجود ، جنس بلا رفقة ، أقلام بلا أحبار»[(١٠)] تحت مقولات زائفة : أن هذا هو عصر المعلومات أو ما بعد المعلومات ، وأن الشعوب الأمية ما لها إلا أن تجلس جلسة القرود تشاهد هؤلاء العلماء يصنعون حضارة جديدة ، وقد يمنون على هذا القرد بحبة فول سودانى أو موزة !! برغم أن هذا العالم المتقدم لم يعرف مقدمات ومنهجيات عالم المعلومات إلا عن

طريق هؤلاء الأميين الذين تعلموا القراءة والكتابة وبرعوا فى علوم لم تبدأ إلا بهم فعلم الببليوجرافيا أو علم قوائم الكتب علم عربى قديم «يرجع تاريخه المحقق إلى أكثر من عشرة قرون ، وربما امتدت بداياته الأولى فى أعماق التاريخ العربى إلى ما قبل ذلك بقرنين»[11] فقد حدث الانفجار المعرفى عند العرب قبل أن يعى هذا العالم المتقدم اليوم معنى من معانى التصنيف للكتب وللفنون والعلوم فلا شك «أن كثرة العلوم والمعارف فى الإسلام هى التى دفعت علماء المسلمين إلى وضع النظريات والفلسفات نحو تقسيم العلوم»[12] وقد كان هذا الانفجار المعرفى تطبيقاً للآية ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ وللآية ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [سورة المؤمنون : الآية ٧٨]. و ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [سورة الإسراء : الآية ٣٧] و ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [سورة يونس: الآية ١٠١]. فهذه الآيات دعوة مفتوحة لكل وسائل المعرفة للعمل فى مصادر المعرفة المناسبة لها ، ومصادر المعرفة هنا الكون كله ؟ ، ولهذا حدث الانفجار المعرفى عند المسلمين مبكراً ، ولذلك احتاج العرب إلى تقسيم العلوم وتصنيفها قبل العالم المتقدم اليوم بعشرة قرون ، وحقيقة أن الأمية كانت عقبة أمام كثير من العقول العربية وغير العربية لتستقيم لديها أدوات المعرفة لكن المجتمع فى تلك البقعة من العالم لم يعرف الحجر على حواس الإنسان أن تعمل فى غياب حاسة من حواس المعرفة ، فلماذا نقيد تقدم الفرد بجزء من أدوات المعرفة وهى القراءة ؟!

ونستطيع إيجاز عناصر مشكلة الأمية القديمة والمعاصرة فيما يلى :

- انقطاع الأمى فى المنطقة التى نعيش فيها عن تاريخه ، وذلك لأسباب عقدية خاطئة ، ولأسباب اجتماعية وسياسية .
- الفقر الاقتصادى الذى حل بتلك المنطقة نتيجة عدة حروب لا فائدة منها إلا رغبة بعض الحكام فى أمجاد وهمية ، مما نتج عنه إهمال كل مجالات الحياة ومنها التعليم ورعاية العلماء ، وبدلاً من ذلك اقتحم الشعراء ساحة النفاق فزيفوا معنى العلم ومعنى القراءة .
- نزعة فقدان الإرادة والانتماء بل والهوية التى سيطرت على كيان وحواس ومشاعر معظم أبناء المنطقة فى عدة أحقاب من الحكم الجاهل والظالم ، ثم الحكم الاستعمارى ، وما يتبعه من إهمال كل عناصر وجود الإنسان .
- قيام الثورات العسكرية فى العصر الحديث والتى يغلب عليها النزعة الخطابية ، مع إهمال التخطيط العلمى للنهوض الجاد بالمجتمع وجدانياً ومعرفياً .
- افتقاد التواصل المؤسسى للنهوض بالتعليم وتدارك الأخطاء التاريخية فى المراحل السابقة ، فقد سيطرت الحلول المؤقتة والشخصية على مسيرة التعليم ، بل وتعارضت خطط بعض الوزارات أو المؤسسات مع بعضها البعض فى فترة زمنية واحدة ، أو فى فترات متقاربة ، مما أدى إلى تضخم جميع مشكلات المجتمع ومن أهمها مشكلة التعليم بشكل عام ، والأمية بشكل خاص ، وسهل تنصل كل مؤسسة أو

وزارة من مسئوليتها عن عدم تحقق خطوة إيجابية نحو تقدم المجتمع معرفياً ، وفى نفس الوقت ظهرت الصيحات الكاذبة التى تدعى قدرتها على القضاء على الأمية بصورة حاسمة وقاطعة .

- ظهور التقدم العلمى الحديث القائم على مناهج بحثية غائبة عن المنطقة العربية[١٣] . مما أدى إلى افتقاد العقلية العربية فهم منطلقات النهضة العلمية الحديثة ، وكذلك ظهور عصر الحاسب الآلى أو ما يسمى «الثورة الصناعية الثالثة ... وما تبع ذلك من تطور هائل فى مجال صناعة المعلومات (Informatics) فى أبعادها المختلفة المتمثلة فى المعدات (Hardware) أو فى البرامج الأساسية والتطبيقية (Software)»[١٤] . وقد أدى ذلك إلى حدوث صدمة لدى معظم الدول النامية والمتخلفة ، وأيضاً أدى هذا فى بادئ الأمر إلى إحباط العاجزين عن القراءة والكتابة ، فقد شعروا بأن هذا العصر ليس عصرهم وعليهم انتظار الموت ليخلصهم من عبء العيش فى مجتمع لا يفهمون آليات حركته ، وكذلك شعور بعض العرب بالدونية حين رأوا التقدم العلمى المتمثل فى المنتج الحربى والمدنى للعالم المتقدم وقد زاد من حدة هذا الشعور أن إعلام هذه الدول المتقدمة أظهر نفسه بأنه الجنس الأعلى «السوبرمان» أو الجنس الآرى وارث الحكمة اليونانية .

- إصرار المسئولين فى المنطقة على ربط النهضة العلمية بالقضاء على الأمية ، وعلى تحديد النسل ، وعلى كبت الحرية تحت دعوى لا صوت يعلو فوق صوت المعركة ، أو صوت اللامعركة ، أو تعليق كل شيء على إصلاح كل شيء ، ولما كان كل شيء لن يصلح فبالتالى لن يحدث أى شيء ، وهكذا ندور فى حلقة مفرغة ، فلا الأمية تراجعت ، ولا النسل تحدد ، ولا المعركة استمرت !!

مما سبق يمكننا فهم عناصر تلك المشكلة ، وفهم عناصرها وترتيب إيجابية تلك العناصر بحيث نرتب أولوية الاستفادة منها ، وتجنب سلبيات الحلول المؤقتة التى تناولت المشكلة فى جزئيات لم تثمر فى الحل المجدى ، والذى يؤمل منه التقدم ولو خطوة نحو حل تلك المشكلة .

القسم الثاني

المنهج

إن أسس أية مشكلة هى جزء من أسس التعامل معها ، وبالتالى فإن منهج مواجهة هذه المشكلة يبدأ بفهم مكونات هذه المشكلة ، واستنتاج منهج التعامل مع هذه المشكلة من خلال ما يتناسب مع هذه الأسس فليس المنهج سابقاً على وجود المشكلة ، بل هو منهج حتمى ناتج من تركيب هذه المشكلة ، فبقدر تعقد هذه المشكلة بقدر ما يحتاج الحل إلى تحليل عناصر هذه المشكلة، والتعامل معها فى كلية شاملة ، فإذا كان «التحليل بإيجاز هو عملية تعريف وتقويم للأجزاء التى تكون منها الكل ، وهو وسيلة للحصول على معرفة غنية وجديدة ... ويمكن الباحث من التمييز بين ما هو أساسى وما هو ثانوى من عناصر الظاهرة»[١٥] . فإن تحليل هذه المشكلة يبين لنا حجم أساسيات تلك المشكلة المعقدة ، لكن المنهج التحليلى لا يكفى لتبين حجم تلك المشكلة ودور كل عنصر من عناصرها إلا باتباع المنهج التركيبى الذى يناسب تلك المشكلة التركيبية ، ومن هنا تظهر العلاقة الوثيقة بين المنهجين ، فالتحليل يعنى عملية تفتيت الكل إلى أجزاء سواء كان تفتيتاً طبيعياً مثل ما يحدث فى العلوم الطبيعية أو تفتيتاً ذهنياً مثل ما يحدث فى العلوم الإنسانية ، والتركيب يعنى إعادة تجميع وبناء الأجزاء لتكوين الكل ، وهدف التحليل هو إدراك عناصر كل مركب مع معرفة الضوابط التى تربط علاقاتها من جهة والقوانين التى تحكم حركة وتطور الكل المركب من جهة أخرى ، وهدف التركيب توحيد العلاقات المفككة فى كل واحد[١٦] وقد تبين لنا من تحليل عناصر مشكلة الأمية أن أخطرها ما يلى :

الوقوف بالأمى فى مجال المعرفة عند حاجز العجز عن القراءة والكتابة ، فإذا كانت تلك المشكلة عميقة الجذور فإن مواجهة مكوناتها يتطلب مواجهة تاريخ من الأخطاء ، أولها تقليل حجم الأمية وأثرها فى آن واحد ، فإذا لم نستطع تعليم كبار السن فإننا لا نعدم الإرتقاء بخبراتهم المعرفية بأساليب معلوماتية حديثة ، تعالج قصور معرفتهم الصحية وطرق وأساليب الوقاية من الأمراض والأوبئة ، وطرق التعامل معها إذا حدث المرض أو حل الوباء ، وهذا الأمر مطبق فى قنوات تليفزيونية فى دول العالم المتقدم برغم أن أمية القراءة والكتابة غير موجودة إلا بنسبة ضئيلة لا تذكر ، ومطبق فى مؤسسات اجتماعية وعلمية تخاطب هؤلاء المتعلمين بوسائل إيضاحية وكأنهم عاجزين عن القراءة والكتابة ، وذلك مراعاة لضعف حواسهم نظراً لتقدم أعمارهم ، فهم لا يهملون تقديم المعلومة النافعة لحياتهم ولجميع أنشطتهم ، وهناك برامج متنوعة لكبار السن تعتبر نموذجاً يمكننا الاستفادة منه لصالح العاجزين عن القراءة والكتابة ، تساهم فى تقدمهم المعرفى كى يمكنهم المساهمة فى رقى مجتمعهم حتى آخر لحظة من عمرهم .

كذلك الإرتقاء بخبراتهم العملية فى جميع مجالات الحياة ، وذلك أمر ميسور فى ظل التقدم المستمر فى وسائل الإيضاح المعرفية من خلال برامج الحاسب الآلى ، ولى تجارب ناجحة فى تعليم

غير القادرين على القراءة والكتابة وكيفية التعامل مع الحاسب الآلى وشبكة الإنترنت والاستفادة من معلومات تسويقية وتعليمية تخص العديد من المهنيين من صانعى الأثاث ، ومن العاملين فى الصيد والتجارة ، وكذلك فى الحد من الفجوة المعرفية لدى الطفل الذى ترك المدرسة مبكراً(*) وإنقاذه من الخصومة المعرفية مع العصر الذى يعيش فيه .

هذه جزئية فى علاج آثار أمية القراءة والكتابة، لكن أن نحاول تعليم الكبار القراءة والكتابة ونعطل مرحلة استفادتهم من المعلوماتية المعاصرة فهذا قصور فى محاولة التخلص من الهوة المتسعة بين ما يعيشه العالم المتقدم وبين ما نحن فيه .

كذلك فإن التسرب من مراحل التعليم المختلفة هو الخطر الأكبر الذى جعل الحد من الأمية وهماً وأمراً مستحيلاً لأنه بينما نجد صعوبة بالغة فى تعليم الكبار القراءة والكتابة نترك الأطفال يغرقون فى بحر الأمية بسهولة بينما تقبلهم تعليم القراءة والكتابة أيسر فسيولوجيا ونفسياً وعقلياً من الكبار وثمار استفادتهم من محو أميتهم أكثر فائدة للمجتمع ، بل إن جرمنا تجاههم أشد وأخطر لأن مسئوليتنا عنهم مسئولية مباشرة ، بينما مسئوليتنا عن الكبار مسئولية تاريخية وخطأ تاريخى تتعدد فيه المسئولية ويسهل الهروب والتهرب من تحملها .

وأيضاً لو تعاملنا مع المرأة التى حرمت من التعليم باعتبار أنه لا فائدة من تجاوز جهلها إلا بعد تعليمها القراءة والكتابة فإننا نضيع البقية الباقية من كيانها المعرفى ونعطل وسائل معرفة عديدة لديها تستطيع بها أن تعيش عصرها بجزء إيجابى من وسائل المعرفة لديها تتناسب مع جزء من آليات المعلوماتية المعاصرة .

إننا نضيع أجيالاً ونحرمهم الاستفادة من منجزات عصرهم تحت دعوى ضرورة القضاء على أمية القراءة والكتابة ، وبدلاً من هذا الوهم نستطيع أن نعتبر المعلوماتية المعاصرة مدرسة جديدة معاصرة تيسر سبيل المعرفة أمام واقع صعب التخلص من أخطائه التاريخية دفعة واحدة ، وإذا كنا نأمل من المدارس التعليمية المعاصرة أن تقوم بدور جديد مواكب عصر المعلومات وخاصة فيما يخص الاعتماد على الذات فى تحصيل المعلومات ، فإنه لابد من «امتلاك القدرة على جمع الحقائق العلمية ... وعلى رؤية المشكلات المعلوماتية عبر مصادر أخرى غير الكتاب»[١٧] فغير الكتاب يمكن عبر وسائل عديدة لا تحتاج القدرة على القراءة والكتابة .

(*) تعاملت مع العديد من هؤلاء الأطفال من معظم مناطق مصر ولا يعرفون حرفاً واحداً من أية لغة وحفاة ويعانون فقراً أو إهمالاً من المجتمع ولكنهم أثبتوا قدرة فائقة فى التعامل مع الحاسب الآلى فى جزئيات معرفية وترفيهية أعادت إليهم الثقة فى أنفسهم معرفياً وعقلياً ونفسياً فقد تميزوا على رفاقهم من الذين حصلوا على حظاً من التعليم بلغ المرحلة الثانوية . وقد حدث فى مؤتمر الفلسفة ورجل الشارع أن أتى أحد المشاركين فى المؤتمر برجل الشارع كى تكتمل منظومة المؤتمر ، وكنت أود لو أفعل ذلك وأقدم طفلاً من صعيد مصر من محافظة المنيا اسمه السيد مرزوق ، حار العديد من المتخصصين فى مجال التربية فى فهم آلية تعامل هذا الطفل مع الحاسب الآلى ، ولكننى لا أعتبر هذا المثال قاعدة لأنه وغيره يستطيعون الاستفادة من المعلوماتية المعاصرة إذا يسرنا لهم كيفية التعامل معها . ولكن لا يجب تركهم فى بحر الجهل المركب من أمية قديمة وأمية جديدة !

وهذا أمر يمكننا تطبيقه فى المدارس وغير المدارس أو على وجه الدقة «المدارس المفتوحة المعاصرة» مدارس المعلوماتية المعاصرة التى ظهرت كرحمة لطبقات حرمت من التعليم المدرسى المنتظم، وليس معنى هذا أننا نستغنى عن تعليم القراءة والكتابة لتلك الطبقات ، لكننا نستفيد من واقع جديد مع واقع صعب تغيره فى يوم وليلة .

دور المدارس والمكتبات واجهزة الإعلان فى عصر المعلومات :

اولاً : المدارس :

إن المناخ المدرسى الشامل لكل مجالات الحياة يجعل الفرد - أى فرد - يقبل الانخراط فى كل نشاط تقوم به المدرسة ، التى تتسع مكانياً لكثير من المجالات فوجود لوحة البيانات (السبورة) يحرك فى الطفل الرغبة فى أن يكتب ، ووجود المعمل يحرك فى الفرد الرغبة أن يجرب كيميائياً وطبيعياً ، ووجود آلات الموسيقى تحرك الرغبة فى الفرد أن يداعب أوتار تلك الآلات ، ووجود الملعب يحرك فى الفرد الرغبة فى الحركة ، ووجود المشغل والورشة تحرك فى الفرد الرغبة فى أن يظهر عقدة الحل والتركيب، ووجود المرسم بعدة أدوات ومواد يحرك فى الفرد الرغبة أن يعبر عن شعوره الفنى ... إلخ .

وسوف تظهر المواهب بين المتعاملين مع هذه المجالات ، ولكن الأهم هو أن المدرسة التى تحوز هذه الإمكانيات سوف تشيع مناخاً من العلم والحركة والفن والحرية فى الاختيار يحرك المجتمع ككل من نقطة إلى نقطة أخرى لن تكون للخلف أبداً ، وسوف تتداعى الحركة وكأنها عجلة كونية دارت ولن تقف ، تنتج كل اليوم الجديد ، لا تعتمد على تعليم القراءة والكتابة فحسب ، ولا تعتمد على إلقاء المواعظ الخطابية ، بل ستحرك المجتمع نحو العمل ومن يعمل لن يعدم الخير من عمله ، حتى وإن فشل فى نتيجة عمله ، لأن علم أصول الصناعة (التكنولوجيا) يقوم على تجارب عديدة الفشل ، فى كل تجربة يعطى معلومة جديدة فى المجال الذى تمت فيه التجربة ، تبين صدق الفرض الذى فرضناه سبباً للظاهرة أو لوجود الشيئ محل الاختبار ، كذلك فإن المدرسة التى بهذا الشكل لن تكون مكاناً للجبر وللقهر وللإحباط ، لأن تعدد مجالات النشاط سوف تخاطب فى كل طفل وفى كل فرد ما خلق له وما هو مهيأ له ، وما نفعله نحن بوجود مثل هذه المدرسة هو تنبيه الطفل أو الفرد إلى ما هو كامن فيه ، وما كان ينتظر الآلة المناسبة والمكان المناسب والزمان المناسب ليظهر لنا ما كان بالقوة إلى حيز الفعل والإنتاج والإبداع .

فالمدرسة التى يحتاجها المجتمع لا تضيع طاقة المجتمع الاقتصادية فى مبنى ينتهى دوره قبل نصف اليوم ، ويغلق فى العطلات الأسبوعية ، والسنوية ، بل هى مدرسة معطلة أثناء عملها !! مدرسة كهذه ليست حلماً مثالياً مستحيلاً إنما هي مدرسة تحتاج قراراً إدارياً وتحتاج عوناً من كل المؤسسات المعنية لأن مدرسة كهذه ستقلل من المبالغ المخصصة للوقاية من الأمراض ، ولمكافحة الجريمة ، وتقلل من الأموال المخصصة لإنشاء النوادى ، وهى فى النهاية مصنع لإظهار المواهب ، ولظهور الفتيان والفتيات ، وللرجال والسيدات القادرين على حمل رسالة الإنسان فوق هذا الكون ، وكذلك تحتاج

هذه المدرسة إلى وعى من العاملين فيها بأن رسالتهم ليست وظيفية روتينية ، بل وظيفة إنقاذ المجتمع من أخطاء تاريخ من الجهل والظلم والأنانية والنفعية وفقدان الانتماء ، واللامبالاة ، يصدق بمقولة أكون أو لا أكون فمن يكون كاتبها وفاعلها فى آن واحد ؟

إن مدرسة كهذه لن تنتظر من الفرد أن يعلم بعد أن يتعلم القراءة والكتابة ، بل ستحرك فيه كل ملكاته المعرفية لتخلصه من أمية هى الأخطر ألا وهى أمية المعرفة أمية الوجود الحقيقى المؤثر فى الكون الذى يعيشه ، إنها لن تنتظر من الفرد أن يحصل على شهادة قيادة السيارة ثم يتولى قيادة السيارة أو لا يتولى هذا الأمر ، إنها ستجعله يبادر بقيادة السيارة ويحسن من أساليب قيادتها وصيانتها وفهم آلية عملها ثم يكون حصوله على الشهادة تحصيل حاصل وليس العكس .

ثانيا : المكتبات :

لن يختلف دور المكتبة من ناحية المنهج عن الدور الذى بينا نموذجه فى المدارس ، إلا فى كونها مكتبات شاملة لما لا يمكن للمدارس أن تحققه بصورة واقعية ، فالمكتبات ستكون مراكز معلومات أكثر تخصصاً من المدارس فليس المطلوب منها أن تكون ذات ملاعب ولا ورش ، ولا مرسماً وإنما المطلوب منها أن تيسر سبيل المعرفة المتخصصة لكل فرد من أفراد المنطقة التى تقع فيها فهى مسئولة عن محو أمية المعلومات : الأمية المعاصرة ، فأجهزة الكمبيوتر تحتاج مواهب قد لا تتيسر فى المدارس ، وعبث ما نحن فيه الآن من أجهزة محنطة كواجهة داخل المدارس ، دون آية فائدة حقيقية ولا دور محدد تقوم به فى سبيل محو الأمية المعلوماتية .

فالمكتبات ليست محلاً لأوعية المعلومات فقط، بل هى ذاتها وعاء للمعلومات بكافة صورها وأنواعها ، ولقد مرت أوعية المعلومات بثلاث مراحل أساسية ، أولها الأوعية قبل التقليدية ، المتخذة من المواد الطبيعية أو النباتية أو الحيوانية ... وثانيها الأوعية التقليدية المتخذة من الورق الصينى ومشتقاته عبر العصور ... وثالثها الأوعية غير التقليدية منذ القرن التاسع عشر كالمصغرات والمسموعات والمرئيات ، والمختزنات الإلكترونية بما فيها المليزرات»[١٨] ، فكل هذه الأنواع من أوعية المعلومات هى أدوات المعرفة ومصادر المعرفة تظل المكتبة هى أولى المؤسسات باحتوائها كى لا تتدخل الاختصاصات فنشوه صورة المكتبات بضعف الإمكانيات وتوزيع الجهود والقدرات على مكتبات فرعية لا تستطيع أن تحقق ما نهدف إليه من محو الأمية المعلوماتية ، ولا تثقيف المجتمع ككل ، ولا تيسير سبيل الباحث العلمى المتخصص ، ولا أعنى هنا المتخصص بالراغب فى الحصول على درجة علمية ، وإنما أعنى به الراغب فى العلم والمعرفة بغية الإرتقاء بالمهنة التى يزاولها أيًا ما تكون هذه المهنة ، أو الراغب فى تحسين أدائه الفنى والمهارى والخططى فى الفنون والرياضة .

إن دور المكتبة فى محو الأمية المعلوماتية يتطلب وجود أخصائى معلومات موهوب ودارس ، فقد رأينا مئات العاملين بالمكتبات ، لكن من الصعب أن نجد الأخصائى الموهوب الذى يملك روح المبادرة ، فأهم صفات أخصائى المكتبات هى

روح المبادرة ، والسعى نحو تيسير سبيل الباحث والعمل معه فى صورة فريق عمل ينتج منتجاً نافعاً للبشرية جمعاء ، حتى ولو كان هذا المنتج حذاءً يرتديه الناس ، فإن جودة هذا المنتج وكونه مريحاً مؤدياً الغرض منه بصورة حسنة يعتبر عملاً علمياً جديراً بالاهتمام والمساعدة من أخصائى معلومات يعى هذه المعانى فى كل عمله . وأما الدور الذى أراه فى بؤرة اهتمام مكتبة اليوم فيجب أن يكون تجاه الذين حرموا من تعليم القراءة والكتابة فتيسير تعليمهم القراءة والكتابة عن طريق البرامج الحديثة ، والتى أثبتت فعاليتها فى محو الأمية سيكون أفضل نتيجة من معلم ماهر موهوب وهو نادر فى تخصصه، وقد يكون قليل المثابرة ، لأن البرامج الحديثة فى هذا الشأن فى الدول المتقدمة مختبرة الاف المرات وعلى شعوب عديدة ونماذج مختلفة ، وأثبتت فعاليتها فى درء هذا الخطر عن إنسان العصر .

المهمة الثانية التى أراها فى أولويات عمل مكتبة اليوم هى الإرتقاء المعرفى بالإنسان العاجز عن القراءة والكتابة ، فهذا الدور لا تستطيع المدرسة أن تقوم به إذا حصل التسرب من المدرسة ، بينما هذا هو دور المكتبة الأساسى من وجهة نظرى ، فالمكتبة العامة دورها أشمل فى هذه المهمة ، وفى نفس الوقت هى أولى به وأخص به من المدرسة ، وتستطيع المكتبات المتميزة أن تستفيد من روح المبادرة الذى تتمتع به إدارة وعاملين ، وقد تعاملت مع عدة مكتبات فى عدة دول عربية وغير عربية ، ولم أجد نموذجاً موحداً للخدمات المكتبية ، لكن كان تقييمى للمكتبات التى تعاملت معها يعتمد على تنوع تلك الخدمات ، وعلى مراعاة الفروق الفردية بين شرائح المجتمع ، فالمكتبة ليست مكاناً طبقياً تمارس فيه الشرائح المرفهة قهراً جديداً تجاه الطبقات الكادحة ، بل إن المكتبة المعاصرة هى النموذج الممكن لحصول أصحاب المواهب المتميزة على حقهم فى المعلومات التى تيسر سبيل رقيهم العلمى والاجتماعى . وكذلك كان تقييمى لتلك المكتبات قائم على نسبة دوران مقتنيات المكتبة(*) فى القيام بهذا الدور والنهوض بالمجتمع برغم خطر الأمية القديمة .

ثالثاً : دور أجهزة الإعلام :

تتعامل بعض المواد الإعلامية مع مشكلة محو الأمية المعلوماتية بصورة ساخرة ومحبطة لأصحاب هذه المشكلة فتزيد نفورهم من العلم والمعرفة

(*) فى إحدى الدورات التدريبية فى علوم المكتبات بمكتبة مبارك العامة بالجيزة أعلن أحد المسئولين عن الثقافة فى مصر أنه لاحظ أن أحد أمناء المكتبات التابع لوزارته يحصل فى كل عام على جائزة أفضل أمين مكتبة ، وجذبه الفضول كمسئول أن يتبين منهج هذا الأمين الذى حصل على هذه الجائزة لمدة ثلاث أعوام متتالية ، فقام بزيارة مفاجئة للمكتبة المسئول عنها هذا الأمين ، ففوجئ بأن هذا الأمين يضع الكتب التى فى عهدة مكتبته فى الدواليب ، ويحيط هذه الدواليب بسلسلة من الحديد ومغلقة بقفل كبير طول العام ، ولذلك فإن كتب هذه المكتبة لا تضيع ولا تتلف ، فيكون تقديره أفضل تقدير !!! فهو بالفعل أمين مكتبة !! بينما تقوم مكتبة مبارك على فلسفة عكس هذا النموذج ، فليس لديها ما يسمى بنسخة لا تعار غير الدوريات ، ودوائر المعارف ، ولذلك آمل من مكتبة مبارك العامة بالجيزة أن تضطلع بهذه المهمة لأن عدد روادها يعتبر أكبر عدداً بالنسبة لمساحتها ، كما أنها تخدم شرائح اجتماعية عديدة من مختلف الأعمار ، بل والجنسيات .

obeikandl.com

وحامليهما المزيفين ، الذين لو علموا واجب الحاصل على جزء من المعرفة ، ولو كانوا هم أصلاً قد نالوا شيئاً من العلم أو المعرفة لما كان هذا سلوكهم ، ولكن إذا كان هذا هو سلوك أفراد من مجتمع يحوى العالم والجاهل والمدعى فكيف تسمح أجهزة الإعلام بظهور هذه المواد التى تضر المجتمع وتمنع علاج مشكلاته ؟!

إن الإعلام فى مجتمع المعرفة يستطيع أن يمارس سطوته الفكرية فى إتجاه إيجابى ، ولكن هل الفكر الإعلامى «مازال فكراً ناشئاً»[١٩] . يفتقر إلى الدراسات الموجهة والضابطة ؟ أما أن الإعلام يعلم ما يفعل وهو موجه ناحية تدمير المجتمعات النامية حتى تظل فى حالة ضعف اقتصادى تجعلها مستهلكة للمنتج الأجنبى ؟! إننا لا يجب أن نظل فى دائرة انقد العاجز ، بل ليفعل الإعلام ما يفعل بشرط تحديد الغرض ، فلقد ربانا أهلنا على أننا سنرى ونسمع فى الشارع ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولكن يجب علينا أن نميز بين الغث والثمين ، بين ما ينفع وبين ما يضر ، بين ما يبنى وبين ما يهدم ، بين الحب وبين البغض بين ما نألف به الناس ، وما نؤلف به قلوبهم ، وما نؤلف به بين قلوبهم ، بين الحق وبين الباطل ، نكاد نيأس من التنظير لإعلام يؤدى غرضاً بناءً فى سبيل وطن يعانى من أزمة اقتصادية ، واجتماعية ، ويعانى من قيم قديمة جديدة قديمة قدم الخطأ جديدة كأننا لا نعرف أساليب التعامل معها ! فالإعلام يقدم برامج متميزة «مثل عالم سمسم» تبنى الفرد لبنة المجتمع ، ثم ما أن ينتهى البرنامج حتى ينهال علينا ما يناقض ما أثمره البرنامج ، ولو يعلم كل مسئول مدى الخطر الذى يهدده فى سلامه الأمنى والاجتماعى والنفسى ، بل والسياسى لكان هو أول من يغير وجهة هذه الأجهزة التى استطاعت اليابان أن تحولها إلى جامعة علمية مفتوحة تزيد من تقدم مجتمعها ، برغم شراسة الحملة الغربية بغية تغيير النظام الأخلاقى الذى أدى إلى تقدم اليابان ، وغيرها من دول جنوب شرق آسيا . ولقد أدرك معظم الباحثين أن الإعلام عندما انفصل عن دوره الثقافى المباشر ، وعندما انفصلت قيادته الثقافية عن قيادته السياسية وعهد به إلى قيادات إعلامية محترفة ظنت تلك القيادات أن الإعلام مثل بعض مدارس الفن إعلام للإعلام !! كفن للفن أو ضحك كضحك «فكان فصل سياسة الإعلان عن سياسة الثقافة جريمة لا تغتفر ، خاصة فى عصر باتت فيه الثقافة محوراً رئيسياً لعملية التنمية»[٢٠] والفرد هو أهم عناصر تلك التنمية ، ولكن إذا كان الإعلام يتناول قضية معرفية يعهد فيها إلى مدعى الإبداع دون العمل طبقاً لنظريات التعليم ولقياسات المعامل التربوية فإن النتيجة المتوقعة مزيد من التخبط ، والشعور بأن هذا الإعلام لا يمثل بعض طبقات المجتمع يزيد من تفسخ المجتمع ولابد من ميثاق أخلاقى يقدر جميع فئات المجتمع ويرى فى الجاهل تاريخاً من الأخطاء هو الضحية الأولى والمسئول الأخير ، ويرى فيه مسئولية مشتركة للنهوض بها وللارتقاء بمعارفه وتنمية قدراته كى لا يتخلف عن ركب المجتمع .

القسم الثالث

الغاية والنتائج

١ - كما يقول الفقهاء والمناطقة : التصور يسبق التصديق ، فلقد كانت الغاية من البحث متصورة قبل أن نقدم حيثياتها .

وعندما نحدد غايتنا فى محو الأمية المعلوماتية فى مجتمع أمى فإن آليات الوصول إلى تلك الغاية ليست هدفاً نهائياً ، بل غاية مرجوة فى منهج مستمر ، أى أن المنهج الصالح للتعامل مع هذه المشكلة هو مطلب جدلى مطلق فى صيرورته ، وذلك لأن هناك «احتمال كبير بأن تحتدم المنافسة بين الدول القليلة القادرة على تحقيق مزيد من التقدم العلمى والتقنى»[٢١] . وهذه المنافسة قد ندفع نحن ثمن وقودها أو نكون نحن وقودها المباشر، ولا يجب علينا أن نيأس من مجتمع أمى نأمل منه تجنب حرب المعلومات الحاصل وليس المنتظر ، فحرب المعلومات لم يحدد مجاله فلم يترك حتى مجال الطب فصارت التجارة بآلام الناس ضمن تلك الحرب ! فماذا نأمل من الأمى فى كيفية التخلص من عبء تلك الحرب وهو الذى عانى أعباء تاريخية أدت به إلى كونه لا يعيش عصره ، نأمل منه شحذ حواسه المعرفية ، وتركيزها تجاه مصادر المعرفة المناسبة لقدراته ، وتغيير واقعه بواقعه ، وليس بوهم المعجزات المستحيلة فعلينا «أن نبحث عن الجزء الفاعل فى نفوسنا ، ومنه نبدأ مسيرة السؤال وهى نفسها مسيرة الحل»[٢٢] فعندما يبدأ الأمى السؤال من أنا ؟ وكيف يمكننى أن أعيش فى عصر المعلوماتية وأنا لا أعرف حرفاً من لغة ؟ حين يأتى هذا السؤال بوعى أننى أعرف ما ينقصنى فمن الممكن أن يتحول السؤال إلى أننى أعلم ماذا عندى من قدرات أخرى ، إن هذا السؤال ليس سؤالاً فلسفياً خاصاً بالفلاسفة أصحاب القول : الدهشة أو التفلسف ، بل هو سؤال فلسفى عام يعيه كل من يحاول حل مشكلات نفسه بداية من نفسه لا انتظار حل مشكلات نفسه من قبل الآخرين ، وهذا الوعى ليس من شروطه القدرة على القراءة والكتابة ، بل هو نتاج إعمال وسائل التفكير ، و «**الفكر هبة إلهية**»[٢٣] لا تعتمد على ملكة واحدة ، ولا حاسة واحدة ، وإن كانت تقوى بكمال الحواس إذا وجهت نحو الحق والخير والجمال والعدل ، وتنقلب إلى بلادة إذا عطلت الحواس عن عملها ، فإننا عندما نسمع كلمة الحق منطوقة فإننا نقرنها إما بنموذج من التقدير للحق ، وإما ببحث معين يجعلنا ندرك جمال الحق[٢٤] ولا شك أن السمع يستطيع أن ينقل الذى حرم القراءة والكتابة أن ينقله من مرحلة معرفية محدودة إلى مراحل ترقى به إلى درجة عالية من الوعى والفهم لما يحيط به وما يعيش به وما يعيش معه . وبقدر ما ذكرناه من تركيب وتعقد مشكلة محو الأمية المعرفية ، فإن العقل التركيبى يستطيع أن يتجاوز تلك العقد لأن العقل التركيبى هو الذى يسترعى انتباهه الكل دون الأجزاء فلا يقف عند تعطل جزئية من حواسه ، ولا يجعل تلك الجزئية تشل بقيته الصحيحة ، وإننا قد وجدنا هذا الأمر عند

طلاب الجامعة فى عدة دول فقد كنا نرى الطالب أو الطالبة يقف وتقف عند جزئية لا تبدو واضحة فى المنهج الدراسى، ويصابوا بشلل تام أمام المقررات الدراسية بأكملها ، فكان الحل الأدائى الذى نشفيهم به من شللهم - حتى حين - أن نقول لهم دعوا مواجهة هذا الجزء الآن ، وبعد ذلك - ودائماً - كانوا يرون هذا الجزء واضحًا، ولكن كان ما يهمنى بداية هو عدم التوقف عند جزء من الحياة بعامتها ، وهذا ما أراه صالحاً للتطبيق بشأن محو الأمية المعلوماتية، فما لا يدرك كله لا يترك كله .

٢ - محو الأمية معضلة عميقة الجذور فى وطننا العربى ، ومحو الأمية المعلوماتية المعاصرة تواجه عمق هذه الجذور ، وتواجه عدة صعوبات معرفية واجتماعية واقتصادية ، وسياسية ، بما يشبه المرض المزمن الذى يشكل تاريخاً صحياً للمريض .

ومن أسس هذه المشكلة نستطيع أن نضع أيدينا على أسباب العلاج ، فالسبب المعرفى سبب ونتيجة فى آن واحد ، فكون الإنسان العربى عانى ضعفاً معرفياً نتيجة الفقر والمرض وجهل الوالدين والأجداد ، فلابد من تنبيهه إلى أن الخلاص الأكيد والممكن هو تنمية قدراته المعرفية ، فالصانع الذى يستطيع أن يتعامل مع شبكة الإنترنت ويعلم منها أهم أساليب صناعته وتقليل الفاقد من المادة الخام التى يتعامل معها ويكون منتجه منها ، سيصل إلى مردود اقتصادى نافع يزيد من ثقته بقيمة المعرفة الناتجة من تعامله مع شبكة الإنترنت .

ولكن ليس الأمر بهذه السهولة لأنه - كما ذكرنا - توجد مشكلات أضعفت العقل العربى عضوياً ونفسياً ، فصار يرى فى الجهل هدوءاً يطوى فيه أحزانه وصار يرى فى تفسيرات الجاهلين للدين ملاذاً يخفى فيه عجزه المعرفى عن التعامل مع أدوات المعرفية المعاصرة ، وأدى ذلك إلى تداعيات اقتصادية مدمرة للفرد وللمجتمع فصار العجز المعرفى سبباً لتداعيات اقتصادية واجتماعية ونتيجة - فى آن واحد - للفقر وللتخلف الاجتماعى ، ولكى نستطيع مواجهة هذا الخطر القاهر علينا بالاستفادة من تأثير الدين فى حركة الشعب العربى ، فالله الذى أقسم بالقلم وما يكتبه الملائكة أو البشر يعلم وهو العليم الخبير أثر المعرفة الناتجة عن أدوات المعرفة المعاصرة ، فيدخل فى قسمه قيمة هذه المعرفة وأدوات تحصيل هذه المعرفة ، فإذا انتبه الإنسان العربى إلى هذه المعانى فسوف يسهل عليه التخلص من إرث الجهل التاريخى المركب الذى لا علاقة للدين به ، ولكن يعود بالدرجة الأولى لتفسيرات جاهلة تشكل إعاقة ذهنية عضوية ونفسية للفرد وللمجتمع .

٣ - إن مكونات العقل العربى تحتاج أن نبدأ من الإيجابيات الذاتية لهذه المكونات ، وتحييد السلبيات إلى حين ، حتى يشعر الفرد العربى بقيمة المنتج المعرفى المعاصر ، وهو من تلقاء نفسه سيحدث ما يسميه البعض بثورة على الجهل المركب : أمية الماضى وأمية الحاضر ، وعلى أقل تقدير يستطيع العقل العربى أن يكتسب المعرفة فى عصرنا الحالى من خلال

أدوات المعرفة المعاصرة دون التوقف عند أمية الماضى ، لأننا لو انتظرنا حتى نقضى على أمية الماضى : أمية القراءة والكتابة فسوف تتسع الفجوة المعرفية بيننا وبين العالم المعاصر ، بينما يستطيع العاجز عن القراءة والكتابة أن يستفيد بالوسائل الإيضاحية التى يوفرها الوسيلة الأساسية للمعرفة المعاصرة وهو الحاسب الآلى وبرامجه المتعددة ، ويستطيع هذا العاجز أن يتقدم خطوات حضارية ما كان له أن يتقدمها بالقراءة والكتابة مع بقائه على خصام معرفى مع تلك الأدوات المعاصرة .

٤ - المشكلة المركبة تحتاج عقلاً تركيبياً يسهم فى حلها ، ويتيسر الحل بتحليل عناصر تلك المشكلة ، وفهم الجزء ضمن كلية المشكلة لكن لا يشترط حل المشكلة بكاملها ، فهذا لم يحدث منذ بدء الخليقة ، ولذلك فمن العبث البحث عن حل شامل لمشكلة محو الأمية القديمة ، أو الأمية المعلوماتية .

٥ - كذلك يجب على الدول العربية أن تعى أن التسرب من التعليم والذى بدأ يعود بقوة فى بعض البلدان العربية أن هذا التسرب سيعيد تلك الدول إلى عصور ما قبل التاريخ بسرعة فوق تصور المسئولين عن تلك الدول ، وأن هذا التسرب ناتج طبيعى للفقر وللتخلف الاجتماعى وللمرض ، وعلى المسئولين عن هذه الدول أن يعوا أن التقدم العلمى القادم لن يدع أية فرصة للحاق به ، وأن الحالة الراهنة لا تحتاج إلى تنظير رتيب بقدر ما تحتاج إلى خطوات عملية للاستفادة من التقدم العلمى المعاصر ومن أدواته ومن منهجه ، وفى نفس الوقت نمنع أسباب التسرب من مراحل التعليم لأن ذلك سيجعل القضاء على الأمية مهمة مستحيلة ، ونوجز أسباب هذا الخطر فيما يلى:

- الفقر وما ينتج عنه من رغبة الأسرة فى التخلص من أعباء الدراسة .
- ضعف القيمة المعرفية الناتجة عن فترة دراسة طويلة دون أي تأثير منهجى فى التعامل مع الحياة المعاصرة ومشكلاتها المركبة المعقدة .
- البطالة ، هذا الخطر القاضى على القيمة النفعية للتعليم .
- الضعف الصحى الناتج عن الفقر الذى طال فئات اجتماعية عديدة ، وبالطبع فالضعف الصحى ينتج عنه ضعف عقلى ونفسى يجعل التعامل مع أدوات المعرفة المعاصرة صعباً ومرفوضاً ، بل وأحياناً مستحيلاً .

٦ - ولكى نتسق مع أنفسنا فإننا لن ننتظر ما يفعله لنا الآخرون ولن نركن إلى كثير من الكلمات وحسب فإننا نؤمن **بالفكرة القائدة** التى من الممكن أن تساعد فرداً من الممكن أن يقود نفسه فى اتجاه معرفى مثمر له ولغيره ، وعلينا أن نتجاوز أية صعوبات بإدراك أنه لن ينفع الفرد المعاصر الخصام مع العصر بكل مكوناته، بل إن حتمية الوجود فى هذا العصر تفرض حتمية التعامل معه ، وتقنع الفرد بحتمية المردود النفعى لهذا التعامل ، بل إن الحل الوحيد لكل أسباب الضعف المعرفى والاجتماعى والاقتصادى هو التعامل مع تلك

الأدوات المعرفية المعاصرة كوسيلة أساسية للوجود فىّ هذه الحياة ، وللاستمرار فى هذه الحياة بصورة تحفظ للإنسان كيانه النفسى وتحفظ قدراته المعرفية من التدهور نتيجة القهر العالمى المسمى بأسماء عديدة منها العولمة ، والنظام العالمى الجديد ، ولو تركنا مواردنا البشرية دون رعاية فإن حالة من الكآبة سوف تخيم على مجتمعنا ككل لأن ذلك الجزء من مواردنا البشرية ليس كيانًا منفصلاً برغم أن بعض طبقات المجتمع تعتقد أن الفقراء من لم ينالوا حظًا من التعليم أنهم خارج منظومة المجتمع أو أنهم جزء غريب عن المجتمع ، وهذا النوع من التفكير كفيل بالقضاء على مفهوم كلمة مجتمع ، وعلى ماهيته ، وهذا خطر بالغ لن ينجو من آثاره المدمرة جميع فئات المجتمع ، بل ستتداعى آثار ذلك الخطر فتشمل هذا العالم الذى يذعن أنه قرية واحدة !

ونعم قرية واحدة فيها سيد عبد ظالم ، وعبيد أظلم فهم : «ظالمى أنفسهم» .

openeikandl.com

مصادر وهوامش البحث

(١) المكتبات والمعلومات والتوثيق . د. سعد الهجرسى . ود. سيد حسب الله . دار الثقافة العلمية . الإسكندرية ١٩٩٩م. ص ١ .

(٢) ن.م. ص ٢ .

(٣) ن.م. ص ٢ .

(٤) عصر المعلومات (الدور الثقافى والتنموى للكتب والمكتبات فى عالم متغير) إبراهيم عبد الموجود . الدار الشرقية . القاهرة ١٤١٤هـ . ص ٨١ .

(٥) دراسات فى المكتبات والمعلومات .د. عبد اللطيف صوفى . دار الفكر المعاصر . بيروت ١٤٢٢هـ . ص ٤٧ .

(٦) ن.م. ص ٤٧ .

(٧) ن.م. ص ٤٨ .

(٨) الثقافة العربية وعصر المعلومات «رؤية لمستقبل الخطاب الثقافى العربى) د. نبيل على عالم المعرفة . الكويت . العدد ٢٧٦ ديسمبر ٢٠٠١م . ص ٩٥ . وانظر علم النفس اللحظة . د. مجدى محمد إبراهيم . مجلة المرابطون . جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية . نواكشوط ١٤١٩٨هـ. العدد ٧. ص ٩٥ .

(٩) ن.م. ص ١٥ .

(١٠) ن.م. ص ١٥ .

(١١) دراسات فى الكتب والمكتبات .د. عبد الستار الحلوجى . مكتبة مصباح . الرياض . المملكة العربية السعودية . ١٤٠٨هـ . ص ٨١ .

(١٢) تاريخ أوعية المعرفة . د. عبد التواب شرف الدين . الدار الدولية للنشر والتوزيع . القاهرة . ١٩٩٨ م . ص ١٧٧ .

(١٣) انظر بحث «مناهج بحث غائبة» د. مجدى محمد إبراهيم . مجلة المرابطون . جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية . نواكشوط . العدد ٦ . ص ١٠٣ .

(١٤) موسوعة العلوم السياسية . جامعة الكويت . ١٩٩٣-١٩٩٤م . ج٢ . ص ٩٢٣ .

(١٥) ن.م. مجلد ١. ص ٥١ .

(١٦) ن.م. ص ٥١ .

(١٧) دراسات فى المكتبات والمعلومات .د. عبد اللطيف صوفى . ص ٣٢ .

(١٨) المكتبات والمعلومات والتوثيق . ص ٣ .

(١٩) الثقافة العربية وعصر المعلومات . ص ٣٧٤ .

(٢٠) ن.م. ص ٣٧٤ .

(٢١) موسوعة العلوم السياسية . مجلد ٢ . ص ٩٢٣ .

(٢٢) فلسفة التغير والتغيير . د. محمد محمد إبراهيم . دولارس للآداب والفنون والإعلام . رأس البر . ٢٠٠١م .

(٢٣) فن التفكير . أرنست دمنيه . ترجمة رشدى السيسى . مؤسسة سجل العرب . القاهرة ١٩٦٧م . ص ٤٢ .

(٢٤) ن.م. ص ٢٧ .

(٢٥) المعجم الفلسفى . عربى . إنجليزى . فرنسى. ألمانى. لاتينى . د. عبد المنعم الحفنى . الدار الشرقية . القاهرة . ١٩٩٠م . ص ٥٨ .